زينة العراق بطيفه اللوني

بدران امرايا

شهدت الساحة السياسية العراقية منذ انبثاق الكيان السياسي الحديث للدولة، العديد من الحكام والانظمة المتخلفة التي اعتلت سدة الحكم مستغلة جهود الآخرين ومرتبطة بانظمة خارجية منفذة مطيعة لسياساتها.. ضاربة عرض الحائط آمال واماني الشعب وفئاته التي يمثلونها، وقبل هذا وذاك مصالح الوطن العليا.. حكام لا يأبهون باصوات وانين وآهات الشارع وعامة الشعب..ولم يقدروا قوة ذلك الصوت الهادر إذا لم يلق آذانا صاغية، وكيف سيتحول الى سيل ناري يحرق الاخضر قبل اليابس ويجرف ما يلاقيه من المستبدين وأنظمتهم الدموية الدكتاتورية عبر طريقة لا تشتهيها تلك الانظمة وبعيدة كل البعد عن تصورهم الضيق.. لأن طبيعتها فردية وفئوية طبقية لا تعبر نبض الشارع ككل، بل لفئة معينة حصرا.

لقد ظن حكام الأنظمة تلك ان الله خلق الوطن وثرواته ليهديها لهم يسرحون ويمرحون بخيراته ومقدراته مستهزئين بقيمه المادية والمعنوية وارثه الحضاري والانساني.. مستبعدين يوما ان تلفهم الدائرة وتطالهم أيادي احرار هذا الشعب.. لتطفىء نار كيدهم وحضارتهم الآنية الزائفة رغم يقينهم الوطيد بان مسألة اخضاع الشعب بالنار والحديد والاستعانة بالأجنبي مسألة لن يكتب لها النجاح الدائم وان خدمتها بعض الظروف الآنية الشاذة.. وان قوة وديمومة أي نظام متأتية من شرعية الشعب وعبر صناديق الاقتراع.. وانه السبيل الاسلم والافضل والاكثر ديمومة في كل زمان ومكان، شريطة ان يعمل ذلك النظام وفق ناموس البلاد أي دستورها، معكوسا فيه الطيف اللوني لقوميات واديان البلاد دون ان يزكي فئة معينة لتكون الآمرة الناهية لشؤون وشجون البلاد والعباد.. وصاحبة الوصاية الوحيدة على الفئات الاخرة جاعلة آمالها وطموحاتها وحقوقها في مهب رياحها العاتية وبين مدها وجزرها.. وبالتالي تراخي الوتر الوطني لدى ابناء تلك الفئات القومية او الدينية.

ان الشعور الوطني والانتماء الصميمي يستمد من مدى ما يعكسه الدستور ويقدمه البلد لأبنائه من الحقوق والحريات والمساواة.. بحيث يلبي طموحات ابنائه ككل بغض النظر عن العامل العددي.. فسلامة الوطن وأمنه ووحدته مرهون بهذا الاتجاه.. فمنذ التدشينة الاولى للكيان العراقي بنظامه الملكي عمد الدستور الى اغفال وانكار شريحة قومية ووطنية حد النخاع وفئة مهمة من الطيف العراقي الحضاري وهي الكلدوآشورية.. ولم يذكرها الى جانب العربية والكردية والتركمانية.. لابل عمد الى ذكرها ضمنيا في اطار الطوائف الدينية (الآثورية – الكلدانية – السريانية) الناطقة بالسريانية والمحسوبة على القوميات الأخرى بحسب ما تتطلبه الحاجة ومزاجية النظام الحاكم.. بحيث جعل ابناء هذا الامة الواحدة بتسمياتها التاريخية يدفعون فاتورة عظيمة من الظلم والاضهاد وانكار الوجود الى حد وصفهم بالذناب لتأليب عامة الناس عليهم. لقد أثر كل ذلك سلبا على نفسية هذه الشريحة الأصيلة وجعلها تتحمل اكبر المذابح المروعة وهجرة الوطن والعيش على الهامش.

وبعد ان خضع الوطن للتغيرات الراديكالية والاطاحة بالنظام السابق عام ٢٠٠٣ مر البلد بعدة مراحل سياسية ووضع الدستور العراقي الحالي والدائم.. والذي عمد ورغم احتجاجات ممثل شعبنا الوحيد في لجنة صياغة الدستور الى تقسيم هذه الامة.. وهذه نقطة قاتمة السواد سيسجلها التاريخ على من ساهم من داخل البيت وبدم واسناد من جهات خارج البيت القومي الى ذكر ابناء هذه الامة مجزئيين وغير موحدين بالواوات.. وكأن تجزئة هذه الامة سيمطر عليهم الحقوق والامتيازات.. الى جانب اغفال ذكر مذبحة سميل في ٧ آب عام ١٩٣٣ التي راح ضحيتها اكثر من اربعة الاف انسان بريء من رجال ونساء واطفال وشيوخ.. وقبل ايام مرت الذكرى الرابعة والسبعين لها، وقد اعتبرت ذكرى يوم الشهيد الكلدوآشوري السرياني عطلة رسمية الى جانب الاول من نيسان رأس السنة البابلية الآشورية بمبادرة تاريخية من اعضاء الكتلة البنفسجية للحركة الديمقراطية الاشورية الممثلة الشرعية لشعبنا في البرلمان الكردستاني عام ١٩٩٢.. ومحاضر جلسات البرلمان تثبت ذلك للتاريخ.

كما تنكر الدستور ايضا لذكر الجريمة النكراء التي ارتكبت بحق قرية صوريا عام ١٩٦٩ اسوة بمذبح القوميات الاخرى الى جانب ديباجة الدستور المخجلة والمضحكة والمتنصلة لذكر السلالات الحضارية العراقية الأصيلة من السومرية والأكدية والبابلية والآشورية والحضارة العربية الاسلامية بعصريها الاموي والعباسي مفخرة العراق ودرته الحضارية.. وكأنها حضارات وجدت على سطح المريخ ولم يشهد العراق ولادتها.. كل ذلك نتيجة مساومات وصفقات ارضائية ومحاصصة مقيتة بين هذا الطرف وذاك على حساب امجاد هذا البلد التليد.

لذا وانطلاقا من مصلحة الوطن العليا فعلى عاتق لجنة التعديلات الدستورية الحالية تقع مسؤولية رفع واوات العطف بين مسميات شعبنا الكلداني السرياني الآشوري.. وذكر مذابح شعبنا في سميل وصوريا أسوة بالآخرين.. وصياغة ديباجة ودستور يرفع الرأس ويفتخر بالسلالات الحضارية العراقية القديمة.

لكش المملكة والمدينة السومرية

فؤاد يوسف قزانجي *

مملكة لكش

وصل السومريون جنوب العراق القديم في بداية الألف الرابع قبل الميلاد، وسكنوا أرض شنعار أو جنة عدن حيث نهري دجلة والفرات. كانت الأشجار والأطيار والخضرة الدائمة فعرفوا الكتابة والفأس وبعض المعادن والعربة واستخدام الحمار وأقاموا مدنا مثل أريدو واور واوروك ولكش وكيش وكرسو واومّا ونيبور وغيرها. وفي منتصف الألف الثالث استطاعت بعض دويلات المدن السومرية ان تسيطر على بقية دويلات المدن السومرية من بين تلك الدويلات كانت مملكة لكش. سيطرت لكش على معظم جنوب ووسط العراق، وكانت فيها سلالتان ملكيتان فالأولى تبدأ بالملك اورنانشة نحو ٢٥٠٠ ق.م، وتنتهي بالملك اور–كاجينا نحو ٢٣٧٥ ق.م. وكانت مدينة كرسو القريبة من كيش تابعة لها وتعتبر مركزا لآلهتها.

كان لوكال– زاكيزي ملك دويلة اوروك واومّا قد زحف على دويلات المدن السومرية واحتل المدينة الكبيرة لكش ونهب المدينة وهدم قصورها ومعابدها وذلك عام ٢٣٧٥ ق.م تقريبا. ومن اقدم القصائد في التاريخ قصيدة كتبت على رقيم لعل عمرها يعود الى حوالي ٢٣٥٠ ق.م. كما يذكر العلامة ول ديورانت (١)، حيث يرثي الشاعر الرافديني الأول "دنكرد آمو" كيف نهبت كنوز وآلهة لكش وكرسو قائلا في حزن:

وأسفاه! ان نفسي لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز، وأسفاه!
إن نفسي لتذوب حسرة على مدينتي كرسو ولكش وعلى الكنوز،
إن الأطفال في كرسو المقدسة لفي بؤس شديد،
لقد استقرّ الغازي في الضريح الأفخم،
وجاء بالملكة المعظمة من معبدها،
أي سيدة مدينتي المقفرة الموحشة:
متى تعودين؟!. (1).

وبعد استيلاء لوكال زاكيزي ملك اوروك على لكش وكرسو وغيرهما سيطر على معظم بلاد الرافدين وجعلها تحت حكمه، لكن الأمر لم يطل حتى قام سرجون الأكدي زاحفا في مدينة اكد "قرب اليوسفية" على المدن السومرية والاستيلاء عليها كلها ولم يكتف بذلك بل توجه الى أقصى الجنوب فاستولى على البحر الأسفل "الخليج" ثم زحف شمالا وغربا فاستولى على شمال بلاد كنعان "سوريا" حتى وصل الى البحر الأعلى "المتوسط" وبذلك أسس سرجون الأكدي أول أمبراطورية في العالم "٢٣٣٤–٢٢٧٩ق.م" لكن البرابرة الكوتيين غزوا العراق فترة من الزمن، حتى استعادت لكش في حكم الملك كوديا "٢١٢٤ق.م" من السلالة الثانية قوتها فتوسعت حتى قيام سلالة أور الثالثة.

كانت لكش الدولة المدينة تتألف من عدة مقاطعات وفيها مركز هو المعبد الذي يتألف عادة من زقورة أي مصطبات ثلاث أو اكثر ويكون اله المدينة في القمة لعلاقته بالسماء وكان أهالي لكش يسمون شعب ننكرسو باسم اله المدينة. وننكرسو ابن انليل أبو الآلهة. وفي عهد "انسي" الحاكم كوديا ازدهرت لكش وقد بنى فيها "١٥" معبدا موزعا على المقاطعات وأنفق بسخاء من أجل المعبد الكبير الذي سمي "ابي–نينو" وهو معبد ننكرسو.

مدينة لكش "تلول الهبّا"

أما مدينة لكش Lagash فتقع على بعد "٢٤كم" شرق مدينة الشطرة في محافظة ذي قار جنوب العراق. ومن خلال التنقيبات التي جرت في تلول الهبا التي تبلغ طولا "٥,٣ كم" وعرضا أكثر من "٢,٥ كم" أمكن البحث عن المدينة العظيمة لكش التي اختفت قصورها ومعابدها تحت هذه السلسلة من التلال. كانت مدينة لكش مدينة كبيرة ومهمة وجاءت أهميتها من خلال صلات ملوكها مع مملكة أور ومملكة اريدو القريبتين اليها. كما انها حكمت نفسها وتوسعت من خلال سلالتين لفترة ليست بالقصيرة. كانت لكش تشمل مدينة كرسو التي تبعد عنها زهاء خمسة كيلومترات، وكانت كرسو تعتبر البلدة المقدسة لمملكة لكش. ويعتبر أورنانشة مؤسس مملكة لكش واشتهر من ملوك السلالة الأولى اور – كاجينا الذي نظم لكش وأصدر قوانين وتشريعات اجتماعية لمساواة الأفراد.

كشفت أول بعثة للتنقيب عن المعبد البيضوي الذي بناه الملك اناناتم الأول سنة ٢٤٥٠ ق.م تقريبا، وهذا المعبد ذو طراز معماري خاص، اذ وجدت حوله بنايتان تعودان لمعبدين آخرين، كما وجد في الطبقة الثالثة معبدٌ آخرٌ بناه الملك اورنانشة "٢٥٥٠–٢٥٠٠ق.م" وكشفت التنقيبات على قصر واسع عثر فيه على مجموعات من الأختام الأسطوانية ومجموعة من الرقم لعلها كانت من ضمن مكتبة القصر لحاكم البلاد، كما وجد فيه سبعة تماثيل برونزية تعود الى الملك اناناتم، وتمثال ثامن يعود الى الاله "اشولو–تولد" الاله الخاص للملك المذكور. كما عثر في القصرعلى مجموعة اخرى من الرقم الطينية. وقد أعيد الحفر في المعبد البيضاوي فعثرت احدى البعثات على أنابيب فخارية تمتد الى جدول قريب كانت توصل الماء الى المعبد، كما وجدت في غرف المعبد مجموعة من الأختام والتماثيل الصغيرة لبعض الحيوانات وأجزاء من زوارق يبدو انها كانت تعود الى المعبد للنقل أو لصيد السمك. وفي القصر الغربي وجدت فيه عشر غرف وساحة وسطية ويحيط بالقصر سور خارجي، كما عثر فيه على رؤوس صولجانات متعلقة بملوك لكش وأختام أسطوانية وطبعات طينية منخورة وبعض الأواني والجرار تعود الى عصر سلالة لكش الأولى. وكذلك عثر على تمثال لأسد من المرمر وهو فريد في شكله الفني ورأس صولجان كبير ذي نحت ظهر فيه الطائر الأسطوري "الأمدكر" وعليه كتابة مسمارية تشير الى اسم الكاتب السومري الشهير "دودو".

وأظهرت مجمل التنقيبات في السبعينيات من القرن الماضي من قبل البعثات العراقية استمرار السكن في مدينة لكش حتى العصر البابلي- الكلدي الأخير حيث وجد ملكا آراميا في المدينة المجاورة كرسو.

أهم المصادر والمراجع:

(1) ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود. القاهرة: الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، ط٣/١٩٧٣ "الشرق الأدنى/ الباب السابع ص ١٤".

2. Roux, Georges. Ancient Iraq. London, Penguin Books, 1964 "p.87".

3. صالح، قحطان رشيد. الكشاف الأثري في العراق. بغداد: مؤسسة الآثار والتراث، ١٩٨٧ "ص٧٤٢-٧٤٦".

---

* أستاذ جامعي.

المسرح العراقي.. تاريخ عريق

د. تيسير الآلوسي

يشكل المسرح ميدان الحياة الإنسانية بتلوناتها وتنوعاتها، وهو بهذه الأرضية يمثل صرح الثقافة البشرية والخلاصة الفلسفية الفنية لمسيرة التمدن والتحضر. فالمسرح وليد مجتمع المدينة، مجتمع تقسيم العمل، مجتمع تطور الوعي الإنساني ورقيه وهو المعبر الجمالي ببنيته الخاصة عن تلك التغيرات العميقة في مسيرة التعبير الإنساني عن رغباته وتطلعاته وأحلامه.

ولأن أول ولادة لدولة المدينة كانت في أرض سومر وحضارتها، فقد كانت ولادة المسرحية هنا حيث شيدت المسارح الأولى وتمت كتابة النصوص التي مثلت البذرة المرهصة للمسرح العالمي. ولكن من شجون الزمن ضعف الدراسات السومرية حتى أن المركز العالمي للدراسات السومرية المنتظر ما زال يحبو بعيدا عن أي شكل للدعم لانطلاق دراساته الجدية المؤملة.

ولأن العراق الوسيط كان يخضع لعتمة تراجعت به لأزمنة الكهوف والبوادي فقد افتقد طويلا للتعبير المسرحي ولم يكن ممكنا ولا متاحا لأي شكل للتعبير والإبداع أن يوجد في ظلال تلك المرحلة من الحياة في العراق الوسيط، حتى جاءت النواتات الأول لنهضته الحديثة.

ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت أجواء الحراك الاجتماعي قد بدأت أولى خطواتها، وإن بطريقة بطيئة متثاقلة بسبب من طول زمن السبات وطبيعة الحكم التي سادت على المستويين المؤسساتي الدولتي والاجتماعي العام بما تحكمت فيه من تقاليد مرضية مفروضة قسرا.. ويوم بدأت أولى لمسات التفاعل مع فن التعبير الدرامي المسرحي عبر أنشطة تنويرية معروفة، كانت ولادة فن التعبير المسرحي المعاصر.

أما أول النصوص فكانت بلغاتها الأصل "الأجنبية" كالفرنسية والأنجليزية وغيرها، ثم صرنا نترجم للغات المحلية وكانت العربية متأخرة في ما تم الترجمة إليه من اللغات المحلية في العراق، إذ سبقتها السريانية في هذا الأمر.. ولابد لنا هنا من الاعتراف بما لتلك المسيرة من أهمية تأسيسية ومن إطلاقها شرارة البدء للكتابة بآليات التعبير الجمالي للبنية الدرامية.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أنه كانت كتابات ليست قليلة قد أنجزت ولم تصلنا مثلما وصلت النصوص الأولى للمسرحية العراقية وسنلاحظ ذلك عبر قراءة فهرس المسرحية العراقية، إذ أنه ليس من المنطق أن نقول "إن المسرحية الأولى وُلدت هكذا فكانت موثقة مسجلة ووصلتنا من دون مقدمات ومحاولات أخرى غيرها. وحتى هذه المسرحية وهي مسرحية "لطيف وخوشابا ١٨٩٢" قد جرى فيها سجال طويل وحتى زمن متأخر، فأشارت أغلب تلك الكتابات التي وصلتنا إلى أنها ليست إلا مسرحية مترجمة.

وكان سر الحديث عن تلك المسرحية كونها مترجمة أو في أفضل الأحوال مقتبسة بأغلب مادتها وكل تفاصيل بنيتها، يعود إلى تناقل التوصيف من كاتب لآخر ومن أبرز وآخر من كتب في الأمر كل من الأستاذين علي الزبيدي وعمر الطالب في كتابيهما بالعنوان ذاته "المسرحية العربية في العراق" وفيهما أكدا على كون "لطيف وخوشابا" هي مسرحية مترجمة، وكرر آخرون ما قالاه بالخصوص.

وحتى نأتي للتفصيل بشأن هذه المسرحية التي تمثل منطلق الأعمال الدرامية العراقية، ينبغي أن نشير إلى أن مسرحنا العراقي لم يولد في محيط سهل يتقبله. إذ كانت طبيعة التقاليد السائدة تحظر التمثيل بل الفنون عامة وتسخر منه في حين وتقمعه في أحيان أخرى. ولهذا مثل المسرح ثورة اجتماعية فكرية مرادفا فعاليات التجديد في فنون التعبير الأخرى كما في الشعر العراقي.

وتحمل المسرحيون الأوائل متاعب ومطاردات ومحاصرة وأعمال همجية وصلت حد التصفية الجسدية. وفوق هذا وذاك كان المبدع العراقي يقبع خلف عتمة منعت عنه الكتاب وصلات التثاقف واكتساب المعارف، إلا أن ذلك كان مترافقا مع الشرارات الأولى لنهضة المجتمع العراق من سباته.

ومن الطبيعي في ظل توافر فرص السفر والاتصال بالآخر العربي والأوروبي ممثلين في الأعمال المسرحية بسوريا ولبنان ومصر وإيطاليا وإنكلترا وفرنسا كان للآباء الدومنيكان ولعدد من أبناء الطيف العراقي المسيحي واليهودي أدوارهم الريادية المعروفة والموثقة في التاريخ المسرحي.. ولم يكن هذا إلا خطوة من أخريات تاليات نهض بها العراقيون بأطيافهم جميعها في كتابة النص الدرامي.

وقبل الدخول في صلب بدايات المسرحية العراقية الجدية نشير إلى أنه من الطبيعي وجود نشاط لها بين جدران بعض الملاهي الليلية وأماكن الاسترخاء والتسلية، حيث نمت أعمال تمثل طبيعة تلك الأماكن والمنتديات وتلائم طبيعة جمهورها والعاملين فيها. وقد كان لمثل هذه الأنشطة نتائج بوجهين أحدهما سلبي يتعلق بوصم الفنان المسرحي بكونه ابن النوادي الليلية الرخيصة وما كان يجرّه هذا التوصيف من متاعب وأوصاب ومعرقلات، وآخر إيجابي عبر مراكمة الخبرات في الأداء وفي الكتابة ورصيدها البنيوي الجمالي والمضموني.

لقد صرنا نقرأ ونستمع للقصيدة المتحررة بمضامينها وصار أديبنا ينظر ببواكير وعيه إلى طبيعة الصراعات الجارية ومنحاها والمتغيرات في البنية الاجتماعية بظهور طبقات جديدة من الشغيلة ومن الفئات المثقفة فضلا عن الاطلاع على النظريات التي شكلت وعي الإنسان المعاصر من مثل ما جاء به ماركس وفرويد وداروين وفريزر في الاقتصاد والسيكولوجيا والبايولوجيا والأنثروبولوجي..

إن كل ذلك كان المقدمة التي أوقدت شعلة التحرر من اسار الأشكال التقليدية في الكتابة.. وسنجد أول ثورة في مجال الشعر لاحقا بعد تراكمات إيجابية وافية عندما تنطلق قصيدة التفعيلة والشعر الحر من هنا من أرض الشعر والأدب والفنون. أما في مجال الكتابة الجديدة في مجالات السرد فتنطلق القصة بألوانها وتلحق بها بُعيد عقود قليلة الرواية العراقية.. ومن بين كتّاب فنون القول المتنوعة ومن رديفهم في إبداع النص الجديد تبزغ أولى خيوط فجر المسرحية العراقية.

لقد كُتبت عشرات بل مئات النصوص منذ ولادة أول نص مسرحي عراقي في نهايات القرن التاسع عشر. واحتفظ إرشيف المكتبة المسرحية العراقية بعديد من تلك النتاجات، على الرغم من الخسائر الفادحة التى لحقت به غداة حرب آذار/ نيسان ٢٠٠٣ وانفلات الأوضاع وحرائق بغداد وأعمال السلب والنهب والاعتداءات التصفوية التدميرية التي تعرضت لها المكتبات ومؤسسات الثقافة والفنون من أصابع مرضية دخيلة كما حصل في حرق المكتبة الوطنية ومكتبة التوثيق المسرحي في مؤسسة السينما والمسرح وغيرهما.

إن أبرز تلك الأعمال تمثلت في نمطين مسرحيين هما المسرحية التاريخية لما لها من دور في استعادة مجد التاريخ وزهوه والمسرحية الاجتماعية التى تم توظيفها للتعاطي مع القيم الأخلاقية ومعالجة المشكلات التي عانى منها المجتمع بقيوده وتقاليده البالية التي تعرض لها المسرح العراقي بكل جرأة وروح تنويري.

أما النمط الرئيس الثاني فهي المسرحية الاجتماعية ومنها يبرز موضوعان أولهما يتعلق بالقضية السياسية المباشرة والمتعلقة بالثورة الوطنية والقومية ضد الأتراك وضد الاستعمار الجديد أما الموضوعة الثانية فتتعلق بهموم الشباب وطموحاتهم والمشاكل العائلية من علاقات وظروف محيطة بها.